رأي القدس

قمة مبارك اولمرت

■ ها هو منتجع شرم الشيخ يواصل مهمته في استضافة المسؤولين الاسرائيليين تحت عنوان «اعادة احياء مسيرة السلام»، فقد حل ايهود اولمرت رئيس الوزراء الاسرائيلي ضيفا على الرئيس حسني مبارك في زيارة جرى الاعداد لها بشكل مسبق في اطار تحرك جديد ترعاه الولايات المتحدة.

اولمرت وصل الى شرم الشيخ بعد ان قام بزيارة الى العاصمة الامريكية، التقى خلالها الرئيس جورج بوش واركان حكومته، وحصل على ضوء اخضر مشروط لخطته احادية الجانب، برسم حدود الدولة العبرية في غضون ثلاثة اعوام.

الرئيس بوش اشترط على اولمرت ان يحاول الاتفاق مع الفلسطينيين اولا، واذا فشل في التوصل الى تسوية معهم، فانه في حل من اي لوم اذا ما مضى قدما في خطته للفصل احادية الجانب. ولهذا كان لا بد من الدخول الى الفلسطينيين عبر البوابة المصرية، واللجوء الى ضغوط الرئيس حسني مبارك لتهيئة الاجواء، مثلما جرت العادة، لمفاوضات جديدة، في قمة ثلاثية في المنتجع نفسه في غضون ايام.

حكومة حركة «حماس» تظل هي العقبة الرئيسية في طريق القمة الثلاثية المقترحة، والقرارات التي يمكن ان تتمخض عنها، ولهذا تسير الاستعدادات على قدم وساق من اجل اجراء الاستفتاء على وثيقة الاسرى، للالتفاف على هذه الحكومة، والحصول على تفويض شعبي يعطي الرئيس عباس تفويضا بالعودة الى مائدة المفاوضات، والتوصل الى اتفاق مع حكومة اولمرت.

الاسلحة تتدفق على الحرس الرئاسي الفلسطيني من مصادر عديدة، بينها الاردن ومصر، وحكومة اولمرت لا تمانع وصولها الى وجهتها الفلسطينية، طالما ان هذه الاسلحة ستستخدم ضد حركة «حماس» وليس اسرائيل. فلا خوف منها او من الذين سيستخدمونها.

لقاءات شرم الشيخ تتم وفق استراتيجية محكمة، وفي تزامن مع ضغوط مكثفة على الشعب الفلسطيني، تتمثل في حصار خانق يهدف الى تجويعه، وكسر ارادته، وتهيئته لقبول «صفقة السلام» الجديدة التي تطبخ حاليا في مطابخ القاهرة ورام الله وتل ابيب وواشنطن.

شرم الشيخ كانت دائما نذير شؤم بالنسبة الى العرب والفلسطينيين، ولم تعقد قمة فيها لا تتمخض عن قرارات تطالبهم بالتنازل، ودون الحصول على مقابل ملموس غير المماطلة والمراوغة من قبل الاسرائيليين.

الراعي المصري لهذه القمم منحاز دائما لاملاءات امريكا واسرائيل، لان اغضاب الفلسطينيين اسهل بكثير، واقل ضررا من اغضاب الامريكيين على وجه الخصوص، لان هؤلاء يقدمون ملياري دولار سنويا كمساعدات مالية واقتصادية والاهم من هذا وذاك، انهم يستخدمون ورقة الاصلاحات كتهديد وللضغط على من يعارضهم او لا ينفذ مطالبهم دون تأخير، ويمكن ان يعطلوا عملية التوريث التي قطعت شوطا طويلا واقتربت من نهايتها «السعيدة».

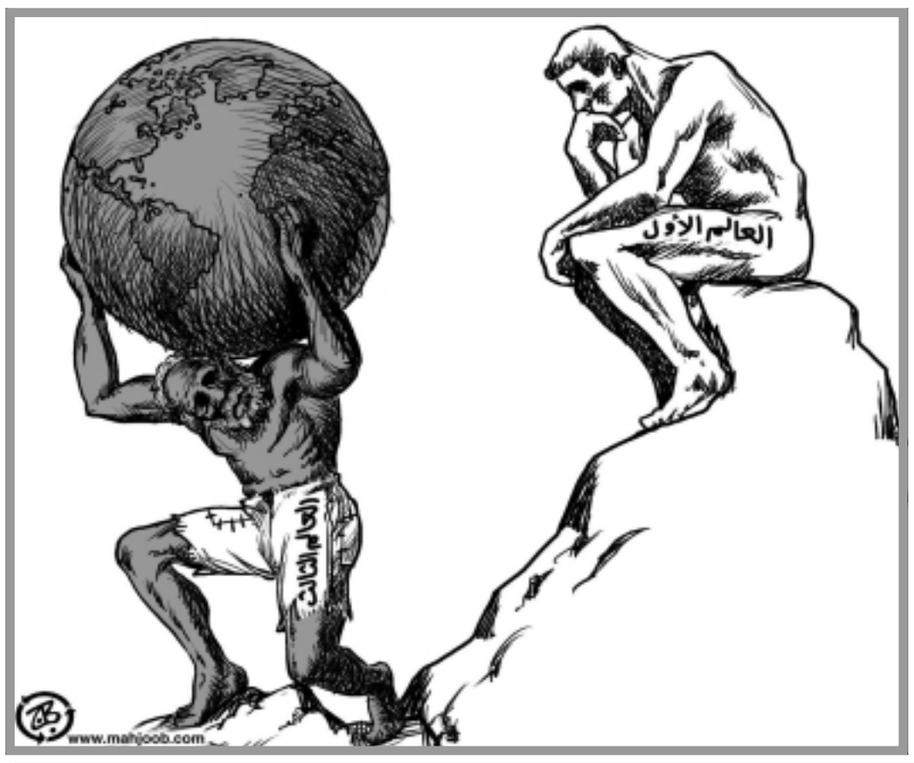

ما هي تلك «النهضة» العربية العاجزة عن إنتاج الحداثة؟

مطاع صفدي *

■ عانى الفكر النهضوي العربي من إشكالية بنيوية كادت تغيب ملامحها عن رؤية أكثر المشتغلين على مفاهيم التخلف والتحديث، عبر أجيال من القرنين الأخيرين.

فلم يكن ثمة تنبّه واضح للفصل بين النهضوي والسياسوي الراهن. بما يعني أن أسئلة النهضة قلما كانت متميزة عن الظروف الآنية المحيطة بها، ومن أهمها ولا شك ضغوط التحديات السياسية التي كانت غالباً ما توصف بكونها تحديات مصيرية، تتعدى الهمّ الفكري الخالص، كيما تتناول وجود الأمة واستمراريتها عينها. وهو أمر يكاد يكون مألوفاً ومفهوماً بالنسبة لأمة واقعة دائماً تحت تسلط القوى الأجنبية ذات التميّز بعوامل التفوق الحضاري التي حُرمت منها هي لأسباب عديدة، وطيلة عصور مغرقة في القدم.

فكان الوعي النهضوي مشدوداً دائماً على وتيرة وحيدة. يحتلّها عنفُ المضاهاة بين الذات والآخر. إنه ذلك العنف الذي يغذي سيكولوجية الإضطهاد الجمعي تحت وطأة الشعور بالدونية المسلوبة الإرادة، إزاء طغيان الآخر، ليس بأدوات سيطرته المادية المباشرة فقط، ولكن كذلك بأسرار الشخصية الحضارية المعقدة والغامضة، القائمة وراءها ـ هذه العلاقة الضدية بين الذات والآخر تحكّمت في تأسيس الدوافع الأولى للحراك العام الموصوف بالإجتماعي. الأمر الذي أعاق نشأة الفكر بما يرجع أولاً لذاته. فكان انشغال النخبة الثقافية بابتكار الحلول الآنية لتراكم المشكلات العامة الراهنة والطارئة ـ يجعل النهضة في منأى عن طرح الأسئلة الأساسية، المتعلقة بالعقل العربي نفسه الذي يسعى إلى فهم الواقع والتعامل معه. وفي حين تقع المتغيرات الموضوعية من سياسية واقتصادية وحتى العسكرية من حول الانسان العربي، الا أن طريقة وعْيه لها تظل في منأى عن مساءلتها لأجهزتها المعرفية، وقد راحت تمارس عاداتها الذهنية التقليدية، خاضعةً لذات المعايير التي يتبناها الفهم الجمعي التقليدي لأشياء العالم من حوله. ما يمكن التعبير عنه فلسفياً بالقول إن الحالة اللامعرفية، أو ما قبل المعرفية تتابع طغيانها على الحالة المعرفية البعدية اللاحقة بها. ما مؤداه أنه إذا كان العقل يرى إلى العالم من خلال منظار أسود، فسوف يستمر في رؤيته مظلماً، وإن كانت تجتاح العالمَ عواصفُ الأنواء والأضواء من كل جهة. إن فهم العالم لا بد أن يكون عالمياً كونياً من طبيعة موضوعه، بينما ينوء الوعي العربي تحت وطأة ظروفه الخاصة.

لذلك كانت ثنائية الذات والآخر التي تحكمت في مسيرة النهضة، تفجّر مراحل جدليتها التاريخية عبر معارك عقيمة لا طائل تحتها. ما دامت لا تستطيع أن تتعامل مع الآخر إلا بذات أنظمتها المعرفية التي تتعامل بها مع نفسها وتدير شؤونها بحسبها. فراحت كل حقبة في تاريخانية النهضة تعيد إنتاج حصائل عين الحقبة التي سبقتها. ذلك أن الفكر النهضوي كان معاقاً باستمرار، سواءً اتجه إلى تفكيك عقد الذات والكشف عن آليات تكوينها، أو اتجه نحو فهم الآخر في محاولة لتخطي ممارساته الضدية، وصولاً إلى سبر جذور تفوقه. فالأسئلة المعرفية معطلة تحت وطأة البحث عن وسائل الدفاع الآنية لدى الذات للرد على تحديات الآخر الذي غالباً ما يملأ الفضاء العربي بالمعارك الحديّة خلال غزواته الاستعمارية أو هجوماته الحضارية المتواصلة. من هنا كان وقوع الوعي النهضوي تحت وطأة إشكالية التقليد وتظاهرات المماثلة، وحالات التماهي مع الآخر، بالرفض الحديّ تارة، أو تجاهل إشكالية العلاقة أصلاً، والاعتراف بخطرها تارة أخرى، يشكل سيكولوجية معقدة متراكبة، مانعة مقدماً، للبحث عن أية عملية تجسير تواصلية سليمة بين نشوء وتكوّن أسئلة الذات عبر الآخر، وبينَ عملية اكتساب وتنمية الأجوبة التي تخصّ الذات وحدها باستقلال أنطولوجي عن عنف الثنائية الصراعية عينها بين القطبين؛ بحيث أن أصول التقدم وشروطه ما كانت لتنبع من ظروف المجتمع وإمكانياته الخاصة. فجدلية المثاقفة كانت ممتنعة عن التحقق التلقائي. وكان البديل الدائم عنها هو سهولة التقليد. إذ إن المثاقفة تتطلب إمكانية التبادل. في حين أن المجتمع المحجوز في اسار تأخره التاريخي عندما يُفاجأ بكل فعاليات الآخر المتقدم عليه في كل شيء، لا تسمح له صدمة المفاجأة المستمرة أن يتجاوز عتبة رد الفعل الغريزي، المتمثل في الاندفاع وراء جاذبية التقليد المباشر، القائم فقط على فعل الأخذ من الآخر، دون القدرة على إعطائه ما يقابله. فالتقليد هو أخذ بدون عطاء، بينما لا تولد المثاقفة إلا من جدلية الأخذ والعطاء معاً. فالهوة قاطعة بين الموقفين: التقليد والمثاقفة. وقد يتمادى الأول حتى التغلغل في نسيج الثاني. وكثيراً ما تكون علّة تعثر الفعل النهضوي ناجمة عن ممارسة المثاقفة كامتداد لآليات التقليد عينها، ولكن عبر التباساتها بمظاهر التقدم الزائفة.

في حقبة الانبهار الأول باكتشاف الغرب، سيطرت ثنائية أوروبا والشرق على بدايات الفكر النهضوي. فاحتلت أوروبا موقع النموذج الذي يفرض على الآخر أفعال المضاهاة بين أحواله المتردية ومزايا النموذج الطاغي. والمضاهاة لم تكن تخرج عن المقارنة بين مظاهر القطبين، لا بهدف تفكيك عوامل كل منهما، بقدر ما كانت المقارنة مشفوعة بإطلاقَ أحكام القيم من تحبيذ وتعظيم للآخر أو للذات، أو من رفض وتسفيه للمعتقدات والمسالك العامة والفردية. كانت الدوافع نحو المماثلة إلى درجة التماهي مع النموذج المتفوق، تعمّق من جهة الشعور بدونية الذات، ومن جهة أخرى تحرّض على الممانعة والمدافعة بتطوير نزعات الرفض والاستعلاء المعاكس، والتقهقر نحو جنائن الماضي المفقودة. وفي مثل هذه الظروف البائسة من الانغمار تحت موجات أحكام القيم الصادرة مرةً بحق الآخر، ومرةً أخرى بحق الذات، ما كان مقدراً للفكر النقدي أن يولد، أو يستقل عن سلطة المضاهاة الفورية.

إن السؤال المعرفي الذي طرحه شكيب أرسلان عن سبب تفوق الغرب (المسيحي) وتأخر الشرق المسلم، لا يزال معلقاً في الفراغ. ولم تأت الأجوبة عليه، وبدءاً من صاحبه نفسه الذي أعلنه، باكتشافات فكرية أو بنيوية واقعية إلا من خلال سيطرة لثنائية جديدة، ذات رنة بلاغية. وهي الأصالة والحداثة، وتناظر ثنائية الذات والآخر. فتغدو الذات محلاً مرجعياً للأصالة، ويظل الآخر مالكاً حصرياً للحداثة، وموزّعاً لحصص منها على بقية العالم. وبذلك فات الوعي النهضوي، في مختلف حقباته، طرح إشكالية الحداثة من أصولها الوجودية (الأنطولوجية)، تحت وطأة طغيان التقييم المعياري الذي يمارسه الفرز الاحتكاري لمصطلحي الأصالة والحداثة، وذلك كلما لاحت في منعطفات الحدث التاريخي، ملامح موضوعية لثقافة التأسيس في المختلف وضرورتها المطلقة الحيوية بالنسبة لتحولات المصير العام، كما تتبينه النخب الفكرية، من أزمة كارثية إلى أخرى. فكيف يمكن الكلام عن الحداثة بدون عقل حداثوي، يكتفي بوظيفة التقاط أقانيم وطقوس وشعارات تتداول أشباه الأفاهيم الشائعة عن التقدم والتغيير، دون أن يكون العقل هو نفسه منتج الأفكار التي تغيّره، قبل أن يكون متلقياً لأفكار سواه.

الواضح أن إشكالية الحداثة، ترجع أساساً إلى إشكالية العقل التي لم تطرح لدى مفكري النهضة عامة إلا من خلال ما ينبغي تبنّيه سواء من الأفكار أو المذاهب وصولاً إلى الأيديولوجيات وعصرها، أو ما لا ينبغي الأخذ به. لم يجر التنبّه إلى المبدأ القائل أن العقل الحداثوي هو ما ينبغي أن يكون أولاً موضوع استفهامه البدئي لذاته عبر مختلف إنتاجاته. فقد اقتصر التعامل مع العقل بصورة عامة، وليس الموصوف بالحداثوي بعْد، كما لو كان جهازَ اختيار وانتقاء للأفكار الجاهزة التي يلتقطها من لدن متحفينَ أحدهماً لبضائع الغرب، والآخر لمأثورات التراث. فبعد إفلاس كل جيل من طوائف هذه الاستعارات، يعود العقل إلى اكتشاف غربته الأولى إزاء كل ما كان استعاره من بضائع الآخرين وألصقه بكيانه، كما لو كان من صنعه ومن علاماته. لكنه سرعان ما يغطي غربته السابقة باستعارة أدلجات أخرى من خارجه.

لا يكشف تاريخُ الأفكار النهضوية عن حركة نمو أو تطور في مسيرة وعي متكامل بقدر ما تبرز المشاهد الثقافية عبْر نقلات بين أنظمة ذات صياغة سياسية أكثر منها فكرية، تلبي حاجات آنية مرتبطة بمتغيرات الظروف العامة المحيطة بالمجتمعات خلال مرحلة الاستعمار. وما جاء بعدها من مرحلة الاستقلالات الوطنية وبناء الدولة الحديثة. فقد تغلبت على هذه المسيرة آلية استعارة حلول وأجوبة لمشكلات الآخر الغربي على أنها حلول صالحة لمشكلات الذات. بمعنى أن التفاعل مع الآخر، لم يولد تفاعل الذات مع إنتاجاتها. لم يحدث أن حاولت الذات التعرف إلى نفسها، والكشف عن بنيتها، إلا من خلال ما كانت تلتقطه صدفةً من بيانات الآخر عن أحواله الخاصة به. فكانت هناك عمليات من استعارة إشكاليات الآخر الظاهرة، وإلصاقها بالذات. بحيث إنه في كل منعطف كان يمكن أن يولد فيه النقدُ من مسبباته الخاصة العائدة إلى معاناة النخب، واستشعار الظروف المحيطة بخواصها وعلاماتها الفارقة، لكن تتجدد سلطة الالتباس مع أشباهها الناتئة لدى النموذج الغربي المسيطر. فلا تنمو ثمة وظيفةٌ حقيقية للنقد. لا يتعرف إلى أدواته، ولا يثير نقاشات واعية حول مناهجه، في الوقت الذي يفشل في اكتشاف موضوعاته كما هي. وبالتالي عندما تضيع لحظة النقد الذاتي من زمن النهضة، يغدو من العسير أن تتقوّم العناصر التاريخية المؤدية إلى انبناء أقنوم واضح ومستقل لمفهوم الحداثة. وعندئذ يخبط التغيير خبط عشواء عاجزاً عن تشكيل أية مراكمة لإنجازات متكاملة في بنية المجتمع. ويغدو الحراك العام مجرد انتقالات بين بدائل لفظوية خالصة، تقذف بها التحولات السياسية وما يرافقها من شعارات مؤدلجة، تهبّ من العالم الآخر، حيثما كل متغيراته إنما تسير وفق تكامل عضوي بين وقائعه العامة وأفكاره القائدة والموجهة. في حين يبقى الوعي الثقافي العربي عقيماً من كل تأثير في الذهنية المتوارثة للجماهير الواسعة والراكدة ركودها اللازمني تحت مويجات العواصف الأيديولوجية التي تتدافع على سطحها، ويمسح بعضُها الجديد اللامع بعضَها الآخر القديم العابر أصلاً.

لا يصحّ الحديث عن صدمة حقيقية للحداثة في الوقت الذي عجزت ثقافة النهضة، وفي أعلى مستويات نضجها خاصة خلال حقبة الاستقلالات الوطنية، عن فرض الاستشعار بضرورة طرح لإشكالية العقل، متخطيةً حالات الغرق الدائمة في تداول المذهبيات السياسوية، ومتوجهة رأساً إلى تعرية العقل نفسه. والحفر حتى عمق نظام أنظمته المعرفية. فلقد اكتفت ثقافة النهضة باستخدام العقل كأدوات تعليل وتسويغ لما ينبغي عليه أن يتبنى من الأفكار والمذاهب والأيديولوجيات. وما لا ينبغي له الأخذ به من تلك الأنساق الفكروية المعروضة والواردة غالباً كأطياف صاعدة أو هابطة على هوامش الحركات والتيارات السياسية. لم تدق بعد ساعة النقد الجذرية المستقلة في الزمن النهضوي المتعثر. لقد بقي نظام الأنظمة المعرفية مسيطراً كلياً على عمليات الفهم: التبنّي أو الرفض للأفكار والمذاهب. كأن ثمة كأساً تمتلئ بسوائل ذات ألوان مختلفة متغيرة. لكن تظل الكأس هي عينها ناجية من أي تغيير تستعيره من محتوياتها. فالحداثة ليست في الأفكار بقدر ما هي في الآلة الصانعة للأفكار. ومثل هذه البداهة لم تتوصل إلى كشفها أية طفْرة أيديولوجية أو سياسوية ادّعت تجديداً للبنى الثقافوية المتوارثة.

تحت وطأة مضاهاة الذات المستضعفة بالآخر المستقوي بتفوقه والمداهم، لم يكن ثمة فسحة معرفية تتيح للعقل أن يغدو موضوعاً مركزياً لاستفهامه لذاته أولاً، وبالتالي مثلما تجاهلت النهضة طرح إشكالية العقل العربي كاستفهام لذاته أولاً، كذلك لم تأتها لحظةُ وعي، تدفعها إلى استطلاع العقل الغربي نفسه، وطريقة تعامله مع إمكاناته. فاقتصرت أفعال النقد على إنتاج حلقات متوالية من ثقافة المضاهاة التي منعت في المحصلة تحققَ تلك القفزة النادرة من توالي تمسرحات المشاكلة وحدها إلى الفعل المثاقف الذي من شأنه أن يكسر من حدية التقابل بين قطبي الثنائية (الشرق / الغرب). لم تكن تلك الثنائية قادرة على إنتاج أية جدلية معرفية بين قطبيها. فالمشاكلة تحبس التقابل في مرتبة التضاد العقيم، الذي بدوره يؤدي إلى الموقفين التقليديين: إما التسليم بطغيان الآخر والتماهي معه إلى درجة الانمحاء، وإما رفضه ومضاعفة التماهي مع الذات في موروثها المعهود خارج كل لحظة تاريخية راهنة. ما يجعل العقل عاجزاً عن إعادة تأسيس ذاته اختلافياً في آن واحد، عن كل من الموروث المكرور أو المجلوب المستعار.

هذا العجز لا يصدر فقط عن ممانعة الظروف واشتداد قهرها الشامل والمتنوع للفرد المختلف، ومبادراته المستقلة، بل آتية كذلك، وفي أهم أسبابها، من فشل العقل نفسه في الإقرار بعقم أوآليته ذاتها، المحتكرة لفعاليته النقدية، والمتمثلة في التشرد الصدفوي، والتنقل بين الأنظمة المعرفية كبدائل عن بعضها دون الفوز بتلك القفزة النوعية والاستثنائية خارج مسلسل البدائل، واكتشاف قانونها الأساسي والكلي: وهو نظام أنظمتها المعرفية، وذلك بالتصدي له وتفكيك ألغازه المستورة والمتوارية دائماً وراء تلك النقلات العبثية.

إنه العصرُ التنويري الذي لم تلده أبداً أزمان التغيير الفكروي السياسوي، ولا تمكنت مرةً من صناعة البوصلة المشيرة إلى ملامحه المستحيلة. وما يمكن تسجيله في المحصّلة البائسة للمشروع النهضوي ككل، التي تتنوع تسمياته دون أن تتحرر من خطاباته الأحادية، هو أن الخطر الحقيقي المداهم الذي ينبغي وصفه بالخطر الحضاري، هو أنه بات يُحدق بإرادة التغيير نفسها ولا ينجم عن استعصاء موانعها الخارجية فحسب، فلم يبدّد أو يفقد المشروعُ النهضوي عصرَه التنويري وحده فقط، بل يكاد يفقد الشعور بهذا الفقدان نفسه.

* مفكر عربي مقيم في باريس

السعودية: بيت الحرية وإرث الإمام

د. مضاوي الرشيد *

■ صدر مؤخرا آخر تقرير عن البرامج التعليمية الدينية في السعودية قام على اعداده «بيت الحرية» بمساعدة المعهد السعودي في واشنطن. جاء العنوان ليعبر عن مضمون التقرير الذي اشار الى كون هذه المناهج ما زالت تعبر عن الكراهية والتحريض ضد الآخر المسلم وغيره رغم ادعاءات النظام السعودي التي تصر على الاستجابة لرغبات الادارة الامريكية في تغيير المناهج الدينية منذ اكثر من سنتين. قامت هذه الدراسة الجديدة على ترجمة وعرض شريحة منتقاة من دروس الدين والتوحيد بشكل خاص، بالاضافة الى شرح الحديث وغيره من العلوم الدينية. واستنتجت ان المناهج ما زالت تردد التفسيرات السابقة والتي تم الاعتراض عليها هذا بالاضافة الى اعطاء امثلة على مدى استطراد المناهج في شيطنة ليس فقط اليهود والنصارى بل حتى المسلمين الذين لا يشاطرون ائمة الدعوة النجدية تفسيراتهم. من المآخذ على هذه المناهج كونها تتهجم على الصهيونية والماسونية وتنمي فكرة المؤامرة اذ ان الكثير من مشاكل العالم ومآسيه يتم تفسيرها من حيث كونها مؤامرة صهيونية عالمية على الاسلام والمسلمين بمساعدة القوى الصليبية.

من الواضح ان هدف التقرير وغيره من التقارير السابقة الصادرة عن مراكز الابحاث هو اسقاط إرث الإمام والذي تم على اساسه انشاء دولة. التقرير هذا يهدف بشكل واضح الى الغاء الارث الوهابي والذي كان وما زال الارث المسؤول عن نشأة دولة تحمل اسم السعودية. الكل يعلم ان النظام السعودي لم يكن لينشأ ويتطور وينتشر لولا هذا الارث. ففضل دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب على العائلة السعودية والتي لم تكن تعرف في الجزيرة العربية مطلقا سوى انها تتكون من أمير حكم منطقة تسمى الدرعية كغيره من الأفراد الذين استوطنوا الواحات في وادي حنيفة لا يمكن ان يتجاهله أي مؤرخ، هذا الفضل والدين التاريخي هما المسؤولان عن نشوء الدولة والتي اخذت طابعا خاصا نتيجة الحلف التاريخي والزواج الكاثوليكي بين العلماء والامراء. فبالاضافة الى عدة زيجات بين بيت الامام وبيت الأمير كان هناك حلف مقدس تم على اساسه تقسيم الدولة ومهامها بين الطائفتين. طائفة العلماء كان لها احتكار تفسير الدين والسيطرة على الحيز الاجتماعي بشكل مطلق. مقابل هذه السيطرة على الفكر والثقافة والممارسة الدينية والاجتماعية من قبل العلماء يأتي دور الامراء والذين هم ايضا لهم من الاحتكار نصيب. يتفرد هؤلاء بالشأن السياسي والاقتصادي والعسكري والعلاقات الخارجية، حلت هذه التركيبة الغريبة عن التاريخ والنسق المعروف في الاسلام محل نشوء دولة التوحيد المرجوة وان كان الهدف المعلن هو نشوء مثل هذه الدولة. ظلت المحاصصة بين الامراء والعلماء هي النهج المتبع فتصدر الامراء القرار السياسي واطلق لهم العنان في التصرف بالشؤون الاقتصادية والمال العام دون رقيب او محاسب. كذلك ترك العلماء لهم معضلة التعامل مع من اسموهم كفارا من بريطانيا مرورا بالولايات المتحدة دون اي احتجاج او تعليق. كذلك ترك العلماء لاولي الأمر امورا تتعلق بالولاء والبراء والجهاد والدفاع عن المقدسات والأرض كذلك لم يتدخل هؤلاء بشكل واضح في اي معاملات اقتصادية وبنوك ربوية. احترمت الاغلبية الساحقة من العلماء نظام المحاصصة الا اقلية لم تقبل بتحديد الادوار وكانت هناك بعض الحقبات التاريخية العصيبة التي اطل هؤلاء برأسهم ليذكروا القيادة انهم موجودون ويجب الأخذ بآرائهم ولكن في اكثر الأوقات اقتنع هؤلاء ان مهمتهم الرئيسية في الدولة الجديدة هي تأديب المسلمين تحت مظلة الدفاع عن التوحيد وحرب الشركيات. ومن اجل هذا الهدف فتح لهم المجال في السيطرة على التربية الدينية والتي يعتقدون انها تمثل بمناهجها السابقة والحالية نهج أهل السنة والجماعة. ودون الاشارة الى موقف علماء السنة في القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من عواصم المسلمين لا يمكن لاحد ان يجزم ان ما تحتويه المناهج السعودية هو المنهج الاسلامي السني بل نستطيع ان نقول وبكل موضوعية ان هذه المناهج انما تمثل طيفا معينا من التفسيرات المرتبطة بتاريخ المنطقة التي نشأت فيها دعوة الامام والتي هي بدورها استمدت نصوصها من سلسلة من علماء السلف والذين لا يمثلون التعددية التي انطوت عليها واحتضنتها الحضارة الاسلامية خلال اربعة عشر قرنا.

مقابل الهيمنة على المناهج التعليمية والفكر الديني قرر العلماء ان يبايعوا عائلة وذريتها متجاوزين بذلك مواقف اسلامية اخرى. فاستتبت بذلك هيمنة الامراء على السياسة وهيمنة العلماء على المجتمع. فان تساءل احدهم عن موضوع حصار المرأة ومنعها من قيادة السيارة فسيجد ان الجواب يكمن في كون ان هذا الامر من اختصاص العلماء حسب قانون المحاصصة المتبع. فقيادة الامراء لا تجرؤ على تجاوز العلماء خاصة اليوم لان هذا التجاوز سيفتح المجال لتجاوزات في الاتجاه الآخر. اي من قبل العلماء والذين قد يتشجع بعضهم ويتخطى الخط الأحمر خط السياسة والذي هو من حصة الامراء. هذه القاعدة هي المتبعة طيلة العقود الماضية فرغم محاولات النظام اصلاح التعليم وخاصة المنهج الديني الا ان الامراء بذلك يتجاوزون بدورهم الخط الاحمر المرسوم والمتفق عليه. لذلك جاءت الاصلاحات المزعومة للمناهج الدينية ليس بالشكل الذي يتوقعه «بيت الحرية» او حتى بعض الامراء وخاصة ذلك الطيف الذي يروج لنفسه وكأنه أب للاصلاح والتغيير. تخبط النظام السعودي في الكثير من قراراته التي تعنى بالشأن الاجتماعي يعكس مدى تخوف النظام من التجاوز على صلاحيات العلماء فرغم ان الكثير من البنوك في السعودية تتعامل بالربى والذي يجب ان يحرم في دولة تزعم التوحيد مثلا نجد ان النظام لا يجرؤ على تخطي الحدود الاجتماعية لان بذلك التخطي محاولة سافرة للتعدي على حصة الشريك الآخر.

تعرضت شراكة العلماء والامراء والتي قامت عليها الدولة السعودية لعدة هزات في الماضي وحصلت بعض التجاوزات من كلا الطرفين لكن منذ احداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) نجد ان المعادلة قد تغيرت خاصة عندما دخلت عناصر خارجية واقحمت نفسها في مسألة المحاصصة هذه. وما انتقادات الادارة الامريكية للمناهج الدينية المبنية على ابحاث كبحث بيت الحرية هذا الا التمثيل الحقيقي لمدى تغير المعادلة. استطاع النظام السعودي ان يضلل العنصر الخارجي ويقنعه على انه الساعد الايمن الذي يكبح جماح التطرف المتمثل بتعاليم الامام. ففي خطابه للعالم الخارجي يصور الامراء انفسهم انهم القادرون على احتواء تطرف العلماء واتباعهم. من هذا المبدأ اتت تصريحات وزير الخارجية والسفير السعودي في واشنطن والتي اشادت بانجازات تغيير المناهج حسب ما نقله تقرير «بيت الحرية» صدق العالم الخارجي النظام السعودي او انه كان محتاجاً لان يصدق مثل هذه المزاعم حتى لا تتأثر مصالحه الاقتصادية فطالما ان النفط يضخ بكميات تلبي الطلب لم يهتم هذا العالم بما يدرسه الطالب في الداخل السعودي ولكن عندما عرف علماء الولايات المتحدة الخطر على امنهم القومي وربطوا هذا الخطر بالمناهج التعليمية السعودية تغيرت المعادلة. دخلت مراكز الابحاث الامريكية كعين مراقبة تدين وتشجب حسب ما تراه مناسبا لفكرها ومنطلقاتها.

تقرير «بيت الحرية» يدين إرث الامام ولكنه لا يتعرض للمعادلة الصعبة. الولايات المتحدة تريد امراء بلا علماء. تعلم الولايات المتحدة ان مصالحها لا تخدمها في المنطقة اية شريحة اجتماعية كشريحة الامراء ولكنها تحسب نفسها في مركز تجاري تختار فيه ما يناسبها وتترك وراءها ما لا يعجبها. في الماضي قبلت الادارات الامريكية السابقة بالمغلف كله اي بالعلماء والامراء معا ولكنها اليوم تعتقد انها تستطيع ان تسقط ارث الشريحة الاولى وتحتفظ بالشريحة الثانية. لا تريد الولايات المتحدة ولا مراكز ابحاثها ما تسميه بالوهابية المتطرفة لكنها حتى هذه اللحظة متمسكة بشريحة الامراء حتى يتوفر البديل وتبقى على أمل ان يستطيع هؤلاء او احد ابنائهم ان يعيد الأمن والاستقرار ويكبح جماح من تراوده نفسه بمنهج تعليمي يمجد الجهاد ويقدح باليهود والصهيونية ويدين الحملات الصليبية السابقة والحالية. لا يهم الولايات المتحدة ما تقوله المناهج السعودية عن المسلمين اذ ان هذا ليس من اولوياتها السياسية او حتى الدينية. لكن يهمها ان يتربى جيل «سعودي» جديد على حب الولايات المتحدة واسرائيل تمهيدا لعلاقات وسلام مستقبلي قد يأتي او يتأخر.

صب جام الغضب على المناهج التعليمية الدينية هو استراتيجية هروب من مواجهة المشكلة الحقيقية. هدف هذه الاستراتيجية تمييع الموقف وتحاشي الغوص في موضوع مستقبل السعودية والحقوق العامة والحريات والمشاركة السياسية الفعلية. وحتى يتوفر البديل للادارة الامريكية ستظل هذه الادارة ومراكز الابحاث الامريكية تردد اسطوانة بليدة قد مل الجميع من سماعها، سبق تقرير «بيت الحرية» هذا تقرير آخر عن وضع المرأة العربية ومنها السعودية. كل هذه التقارير محاولة للهروب من مواجهة صلب الموضوع والمعضلة التي لا تجرؤ واشنطن على الاعتراف بها. شراكة العلماء والامراء هي قلب المشكلة ولن تحل قضية السعودية الا بسقوط الاثنين معا. سقوط العلماء سيكون نصرا لاسلام جديد لا يجرد الأمة من حق المشاركة السياسية ولا ينزع عنها قدرتها على تقرير المصير سقوطهم يمثل سقوط الكهنوت الذي يعتاش على سلطة سياسية كان شريكا في صنعها. عندها فقط يتعلم الطالب دروسا في العدالة الاجتماعية وحرية المعتقد والشورى الحقيقية. عندها فقط سيتعلم الطالب انه وغيره اصحاب حق ومسؤولية. لكن لا يعلم «بيت الحرية» ان الهيكلية السعودية الحالية لا وجود لها دون إرث الامام ولم يكن ليتسنى لارث الامام ان يهيمن بهذا الشكل لولا الهيكلية السياسية المتسلحة ببراميل نفط. لا يعلم «بيت الحرية» ان ارث الامام كما فسره اللاحقون استطاع ان ينجز انجازا عظيما لصالح الامراء. استطاع هذا الإرث ان يخدر ويضلل شعبا كاملا متسترا بقدسية النص الديني. سيظل النظام السعودي متمسكا بارث الامام ولو بشكل سطحي لأنه يعلم علم اليقين ان لا وجود له بلا هذا الارث. ان زال هذا الارث زالت هوية النظام والنظام معاً.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

دمشق على مِرجَل الإرهاب

محمد برهان *

■ إحباط هجوم مسلح في قلب العاصمة السورية دمشق، بل ضمن محيط أهم المرافق الحيوية فيها ليس خبراً عادياً في دلالاته. ولم يعد ممكناً لأي قارئ للأحداث مهما كان مبتدئاً أن يفسره بالعمل الفردي غير المنظم كما حدث في واقعة هجوم المزة قبل عامين. دلالات هذا الهجوم تأخذ حجمها من تكرار أخبار الاشتباكات مع الجماعات الماثلة في أماكن متفرقة من سورية ومن الوضع الإقليمي المحيط الذي تغيرت معطياته منذ احتلال العراق. العملية الأخيرة تلح في طرح الأسئلة التي بدأت تدور في أذهان السوريين منذ الإعلان عن وجود تنظيمات تكفيرية في بلدهم:

لماذا تنشط الخلايا الإسلامية المسلحة في سورية في هذا التوقيت تحديداً بعد أن كانت البلاد في مأمن من عملياتها منذ أواسط الثمانينيات؟

وهل هذه العمليات مرشحة للتفاقم خلال الفترة المقبلة؟

ما علاقة ما يجري في العراق وإيران ولبنان بنشاط التكفيريين في سورية؟

وهل سيستطيع الأمن السوري السيطرة على نمو واتساع هذه الخلايا المسلحة؟

تبدأ المحاولة للإجابة على هذه التساؤلات من تثبيت مجموعة من المعطيات وربطها بقراءة تاريخية قريبة. فعشية الحرب الأمريكية على العراق وفي غضون السنة الأولى لاحتلاله لم يكن نشاط الجماعات التكفيرية المسلحة في سورية قد اتخذ طابعه المسلح الذي يستهدف مرافق سورية رسمية. فالموقف السوري الرسمي الرافض للحرب على العراق أجّل انتقال هذه التنظيمات إلى العمل الميداني.

إن ظاهرة المتطوعين السوريين الذين عرفوا طريقهم إلى العراق بدعم وتسهيل رسمي عشية وأثناء الحرب. إلى هذه المرحلة بدت الخلايا التكفيرية المسلحة في سورية غير راغبة بفتح جبهة داخلية ما دامت تحظى بطريق سهل إلى الأمريكيين (الهدف الأدسم والأهم).

لكن الضغوط الأمريكية المتنامية على النظام السوري والإعلان للحكومات العراقية المتعاقبة عن تذمرها من التهاون السوري في قطع دابر المتسللين اضطر سورية إلى العمل حثيثاً لإقفال النافذة العراقية.

ومما حفز هذا النشاط ارتفاع حدة التجاذب الطائفي في العراق إلى مستوى الحرب الأهلية وبروز تنظيم أبو مصعب الزرقاوي (الجناح العراقي للقاعدة) كقفة سنية في هذه الحرب. إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل القدرة الأخطبوطية للتنظيمات التكفيرية في التواصل فيما بينها إن لم يكن بالعمليات الميدانية فبالأهداف اللوجستية.

ولكن ما الذي يجعل سورية هدفا لوجستياً لهذه الجماعات؟

ما يجري في العراق يغطي جانباً من السؤال ولكن الإجابة عن السؤال في معظمه تتطلب إدخال إيران ولبنان في المعادلة. إن الحرب السنية الشيعية التي تشهدها أرض السواد اليوم والتي لم يعد يختلف اثنان على ضراوتها لا بدّ وأن تصل رياحها الدموية إلى الجيران..وسورية هي من أقرب هؤلاء الجيران؟ وبما أن سنة العراق يخوضون هذه الحرب واضعين إيران في عين العداء فإن صديق عدوهم هو عدوهم بطبيعة الحال.. من هنا تبدو العلاقة السورية الإيرانية مصدر تخوف لخلايا المواجهة السنية في العراق.. والذين لن يتوانوا عن زج سورية في الصراع.

ما يدعم تخوف هذه الجماعات أيضاً ويثير امتعاضها هو العلاقة الاستثنائية التي تربط سورية بحزب الله (الشيعي) في لبنان.. والذي يبدو هو الآخر مبعث قلق ليس فقط للتيار السني اللبناني بل للجماعات المتشددة (السنية) في العراق.

على هذه الخليفة يأتي الاتهام الأخير الذي طعن الزرقاوي به مصداقية حزب الله مشيراً إلى أن الحزب يرفع شعارات كاذبة في تحرير فلسطين بينما في الواقع هم يقفون كحاجز أمني لا يسمح لأهل السنة بتخطي الحدود لمهاجمة اسرائيل «على حدّ تعبيره»، بل إن الزرقاوي ذهب إلى أبعد من ذلك ليردد بعض مقولات قوى الرابع عشر من آذار (المناهضة لسورية) عندما يتساءل «لماذا يستثنى حزب الله ولا تنطبق عليه بنود اتف